Insya : Journal Of Arabic Studies **p-ISSN : 3025-3772**
Vol.02, No2. 2024 **e-ISSN : 3025-311X**

البلاغة بين الصناعة والمعرفة

Shobirin
birinsho489@gmail.com
Universitas Islam Zainul Hasan
Genggong Probolinggo

Wahid Abdurrohman
wahidabdurrohman07@gmail.com
STAI Luqman Al Hakim, Surabaya

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف البلاغة بين الصناعة والمعرفة. واستخدمت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي من خلال الدراسة المكتبية للوصول إلى نتائج البحث. ولقد توصلت هذه الدراسة إلى أن في عصر الجاهلية، كانت البلاغة عند العرب قد وصلت إلى مراتب عالية، وكان لديهم اهتمام كبير بإتقان الكلام والتميز في المناظرات البليغة. وكانت إعجاز الرسول ﷺ وحجته القاطعة لهم عندما دعا كل من أعلمهم وأدناهم إلى مناقشة القرآن ببلاغته المتألقة، مما يدل على أنهم أهل للبيان والفصاحة، وتميزهم في الفهم وحدة بصرهم في تمييز الكلمات والمعاني والصور. بعد ظهور الإسلام، تبنى المسلمون تراثهم اللغوي والأدبي، وأصبحت البلاغة من العلوم التي حظيت بالاهتمام الكبير، نظرًا لحاجتهم إليها لفهم جماليات القرآن وسحره. ابن سلام الجمحي كان من بين أوائل الذين كتبوا في الأدب والنقد، وتبعه الجاحظ والمبرد وابن المعتز في كتبهم البلاغية، حتى وصلت البلاغة إلى عبد القاهر الذي فلسفتها وأسس اسمها الذي لم يجرؤ أحد على تقليله أو إضافة شيء إليه، لأهميتها، إلا في ترتيب مسائلها وتهذيب أبوابها على يد السكاكي. ومن ثم، تطورت الدراسات البلاغية لتفقد طابعها اللغوي، وتميزت بالموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد. ويرجع هذا التطور إلى تأثرها بالخطاب وارتباطها بقضية إعجاز القرآن، حيث غلب علماؤها من غير العرب، وتراجعت الأدب.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الصناعة، المعرفة

مقدمة

كانت البلاغة عند العرب في الجاهلية قد بلغت مرتبة رفيعة ولها عناية كبيرة بإحسانهم الكلام والتفنن في معارضه البليغة. وكانت معجزة الرسولﷺ وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن ببلاغته

الباهرة مما يدل على أنهم أهل الفصاحة والبلاغة وجودتهم في الإفهام وقوة بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني والصور.

وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإسلام بفضل ما نهج القرأن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة. وقامت في بني أمية سوق المربد قفي البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية، بل لقد تحول إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يغدو عليهما الشعراء لينشدو الناس خير ما صاغوه من أشعار.(ضيق، 1995: 19). إضافة إلى نهضة كتاب الدواوين بكتابتهم ناثرين كثيرا من الآراء البيانية التي صدروا فيها عن ثقافتهم وأذواقهم الحضارية المهذبة ومشاعرهم الدقيقة المرهفة.

وأخذت تبرز منذ أواسط القرن الثالث الهجري بيئة جديدة في مجال البلاغة وهي بيئة المتفلسفة التي كانت تتخذ من فلسفة اليونان ومعاييرهم في البلاغة أساسا تحكم إليه في تقدير القيم البيانية للكلام. فأصبحت الدراسات البلاغية معتمدة على المنطق وتأثرت بالفلسفة فوضعت القواعد والضوابط والقيود مما يجعلها جافة جامدة بعيدة عن الذوق أو بعبارة أخرى تحولت من المعرفة إلى الصناعة

فالبلاغة عند الجاحظ (ت 255 هـ) ومن بعده من ابن المعتز وعبد القاهر الجرجاني (ت 474 هـ) نظرة أدخل في الذوق، تدور حول الأصول دون أن تقعّد للفروع وتفسح المجال للملكة والاستمتاع في إطار كل البعد عن قيود الضبط وأصفادها، فوصفنا هذا اللون من ألوان الدراسات البلاغية بـالمعرفة لا الصناعة.

أما اللون الآخر الذي بدأ بقدامة بن جعفر (ت 327 هـ) واستوى واستحصد عند السكاكي (ت 626 هـ) وشراحه فوصفناه بالعلم المضبوط أو الصناعة، وذلك بالنظر إلى أن هذه الدراسات تتسم بالموضوعية، إما من حيث الاستقراء الناقص وإما من حيث الضبط أو إمكان التحقق من صدق النتائج وكذلك سائر المبادئ (الشمول والتماسك والاقتصاد) يتحقق كل في هذه الدراسات البلاغية . ويتضح من ذلك أن البلاغة السكاكية صناعة كصناعة النحو، بل إن علم المعاني يعد من النحو، ولكنه ليس نحو الجملة المفردة بل نحو النص المتصل. (هدايات، 2000: 56 – 57)

وفي هذا البحث يتناول معنى البلاغة وتاريخ نشأتها وخصائص علم الصناعة وعلم المعرفة ثم البلاغة بين الصناعة والمعرفة.

منهجية البحث

1. نوع البحث

هذا البحث يعتمد على البحث الكتبي. فيقوم البحث بالمطالعة على أي كتب، وبحوث، ومقالات يتصل موضوعها بما يبحثه الباحث. وعلى هذا الحال استخدم الباحث الكتب والمقالات والبحوث يتصل موضوعها بهذا البحث.

2. منهج جمع البيانات

أخذ الباحث البيانات من الكتب والمقالات والبحوث تتكلم عن الموضوعات المتعلقات بما يبحثه الباحث

3. منهج تحليل البيانات

وتحليل البيانات تقصد به المحاولة أو السعي في حل المشكلة المحمولة في البيانات. فاستخدم الباحث في تحليل البيانات منهج التحليل التشريحي وهو حل المشكلة بإتيان التصوير عن الموضوع المحلل اعتمادا على البيانات الموجودة وتحليلها ثم أخذ النتائج العلمية من هذا التحليل (Sidaryanto، 1986: 62)

نتائج البحث ومناقشتها

معنى البلاغة

تُعرّف البلاغة لغةً حسب ما ورد في المعاجم اللغويّة بأنّها مصدرٌ مشتق من الجذر الثلاثي (بلغَ) بمعنى وصل، وهي تعني أيضاً التحدث بلغةٍ تتصف بالفصاحة والقوة بما يتلاءم مع واقع الحال،أمّا معناها الاصطلاحيّ فهي مجموعة من القيّم الجماليّة، والقواعد الفنيّة التي يُمكن من خلالها الحكم على النصوص الأدبيّة من ناحية التميّز والجودة أو الضعف والرداءة، ولقد وردت عن علماء اللغة أقوالٌ متنوّعة في تعريف البلاغة، وكان من أبرزها قول الجاحظ الذي عرّف البلاغة في كتابه (البيان والتّبيين) بأنّها: "الإيجاز في غير عَجْز، والإطناب في غيْر خَطّل.."، وقال أيضاً: "إنّ الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب"، وإشارة أبي هلال العسكري في كتابه "الصناعتيْن" إلى ضرورة معرفة علم البلاغة حتى يتمكّن الكاتب من فهم إعجاز القرآن الكريم

الذي امتاز بخصائص فنيّة عدّة كان من أهمها: قوة التراكيب، وجماليّة التأليف، أضف إلى ذلك ما خصّه الله تعالى به من فن الإيجاز. (شوقي:1985)

البلاغة علم من علوم اللغة. وتعتبر البلاغة من مقاييس الكلام ليتبين حسنه من رديئه وجميله من قبجه. وقد عرف المتأخرون **البلاغة** بأنها : "تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون". (الجارم وأمين، 1999: 8).

والكلام البليغ هو الذي يصوره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبين. والبليغ يلزم منه التفكير في المعاني الصادقة القوية دقيقة الذوق التي تكمن في النفوس، فإذا تم ذلك بدأ النظر إلى الألفاظ الواضحة الفصيحة فألف بينها تأليفا يكسبها جمالا وقوة. فالبلاغة لا تنحصر في اللفظ دون المعنى ولا في المعنى دون اللفظ بل لا بد من انسجامهما انسجاما حسنا.

وليست البلاغة تختص للغة العربية دون الأخرى ولا على أمة دون أمة، وإنما هي في معظم اللغات التي بلغت درجة كبيرة في التطور والارتقاء. وقد عبر العرب عن هذا من عصورهم الأولى فقالوا: " إن البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ولا على ملك دون سوقة ولا على لسان دون لسان بل هي مقسومة على أكثر الألسنة فهم فيها مشتركون وهي موجودة في كلام اليونانية وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم".(مطلوب، 1964: 75)

وقد أشار عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني في كتابه " البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها" إلى أن للبلاغة لا بد من توفر ستة عناصر:

1. الالتزام بالإتيان بالقواعد النحوية والصرفية الصحيحة واختيار المفردات والعبارات الفصيحة
2. الابتعاد عن الخطأ في تأدية المعنى المراد
3. الابتعاد عن التعقيد اللفظي والمعنوي
4. انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة
5. انتقاء الجميل من المقاصد والمعاني وترجمتها من خلال ألفاظ تحمل طابعاً جماليّاً
6. تزيين الكلام بالمحسنات اللفظية والمعنوية. (الميداني، 1997: 131-132)

نشأة علم البلاغة

بلغ العرب في الجاهليّة مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صوّر الذّكر الحكيم ذلك في غير موضع منه من مثل: (الرّحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان) كما ذكر أيضا فى آيات الأخرى:(و إن يقولوا تسمع لقولهم) والأية (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا)

ويروى أنّ الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرّسول الألداء استمع إليه وهو يتلو بعض آيات القرآن، فقال : "و الله لقد سمعت من محمد كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق" . وفي كلام الوليد ما يظهرنا على أنّهم كانوا يعبرون عن إعجابهم ببلاغة القول في تصاوير بيانية، ويعرض علينا الجاحظ في بعض فصوله بكتابه "البيان و التّبيين" كيف كانوا يصفون كلامهم في شعرهم وكلامهم وخطابتهم ببرود العصب الموشاة والحلل والدّيباج والوشي وأشباه ذلك. (الجاحظ، 1960: 222/1).

وقد اهتمت الأمم بتدوين قواعد البلاغة وأصولها لتكون عونا للدارسين والناقدين ، ولعل اليونانيين كانوا أول من عني بتدوين البلاغة والبحث في مسائلها . فأرسطو قد بحث كثيرا من موضوعاتها كالمجاز والاستعارة والتشبيه والخبر والأمر والدعاء وغيرها في كتابيه "الشعر" و "الخطابة".

ولم يكن العرب أقل من غيرهم منزلة ورفعة بعد ظهور الاسلام ، فدونوا علومهم اللغوية وتراثهم الأدبي ، وكانت البلاغة من أوائل العلوم التي اهتم العرب والمسلمون بها ، لحاجتهم اليها في معرفة روعة القرآن وسحره ، وتمييز الكلام الحسن من الردىء ، والجميل من القبيح ، الى جانب رغبة الاجانب في تعلم اللغة العربية وتفهم أساليبها وتذوقها ، بعد ان اصبحت اللغة الرسمية للاقطار المفتوحة بعد أن انتشر الإسلام وساد معظم بقاع العالم المعمور يومذاك.

وكان ابن سلام الجمحي (232 هـ) من أوائل الذين كتبوا في الأدب والنقد في كتابه "طبقات الشعراء". وذكر سيبويه في كتابه التقديم والتأخير والتنكير والتعريف والمجاز العقلي ثم ذكر الفراء في كتابه " معاني القرأن" التشبيه والاستعارة والحذف وغيرها. وألف أبو عبيدة كتاب " مجاز القرأن" ثم تابعه الجاحظ والمبرد وابن المعتز وغيرهم من العلماء.

وظل النقد يسير مع البلاغة جنبا الى جنب حتى القرن الرابع الهجري ثم انفصلت البلاغة عنه بظهور كتاب "الصناعتين " لابي هلال العسكري ، وأصبح لها منهج خاص يهتم بذكر قواعد وتقسيمات تفيد الدارسين والناقدين .

ووقفت بحوث البلاغة عند عبد القاهر، ولم تكن الكتب المؤلفة بعده إلا اجترارا لما كتب ولا سيما في بيئة المشارقة الذين كانت كتبهم عيالا على "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة". هذه نظرة عامة في البلاغة قبل السكاكي، وقد اتضحت أنها مرت بمراحل كثيرة حتى وصلت إلى عبد القاهر فلسفها ووضع اسمها التي لم يجرؤ أحد على أن ينتقصها أو يضيف إليها شيئا له أهميته إلا ما حدث في ترتيب مسائلها وتهذيب أبوابها على يدي السكاكي. (مطلوب، 1964: 76-99).

وبين زايد أن البلاغة قد مرّت خلال هذه الفترة بثلاث مراحل لكن كان من الصعوبة تحديد بداية ونهاية كل مرحلة بشكل دقيق؛ مما أدّى إلى تداخلها مع بعضها بعضاً إلى الحدّ الذي جعل بداية مرحلة من المراحل تختلط بنهاية المرحلة التي سبقتها، وأحياناً نجد في واحدة منها بعض المؤلفات التي تندرج في سماتّ المرحلة التي سبقتها، ورغم هذا يبقى لكل مرحلة خصائصها العامة الرئيسية ونتاجها العلمي الواسع، ونوجز هذه المراحل كالتالي:

1. مرحلة النشأة على هامش العلوم الأخرى: في هذه المرحلة لم تكن ملامح البلاغة واضحة تماماً، ولم يكن لها القدرة على تبني مسائل وقضايا كاملة، إنما كانت عبارة عن ملاحظات وأفكار منتشرة داخل مصنفات العلوم الأخرى التي سبقتها في النشأة.

2. مرحلة التكامل المشترك: في هذه المرحلة أخذت البلاغة شكلاً آخر حيث أصبحت الأفكار والملاحظات التي رافقت المرحلة الأولى تنضجّ وتنمو وتتعمّق في ثنايا كتب العلوم الأخرى، لتتحوّل بعد ذلك إلى فصول كاملة، لكنها لا زالت مختلطة بهذه المؤلفات ولم يكن لها كتبٌ خاصة بها.

3. مرحلة الاستقرار والتفرّد: هي المرحلة الأخيرة وفيها اتخذت البلاغة صيغة محددّة اتسمّت بوضوح المعالم وبشكل نهائي؛ حيث أصبحت عِلّماً مستقلاً له مؤلفاته الخاصّة، وبهذا استطاعت البلاغة التحرّر والانفكاك من ثنايا مؤلفات العلوم الأخرى. (زايد، 1982: 9-11).

علم الصناعة والمعرفة

والمقصود بالصناعة هو التعامل مع قوانين ومقاييس لهما صفة الثبوتية وعلى شكل قواعد يمكن التمرن على تطبيقها وصولا إلى المعرفة بها، وبهذه المواصفات تكون المعرفة هنا مرادفة للعلم، وهي تدل على العلم بالقوانين وتعكس علاقات ثابتة لبنية منظمة لموضوع ما. (شهاب وحيدر، 2007: 11).

ويقابل الصناعة في الفكر العربي ما يسمونه "المعرفة"، ويفهم من المقابلة بينها وبين الصناعة أنها علم يحصل بمجرد التحصيل دون اشتراط التمرن. ويتضح الفرق بينهما إذا فرقنا بين تقطيع أبيات القصيدة ومعرفة معانى هذه الأبيات. فالأول صناعة لأن يبنى على قواعد لابد من التمرن على تطبيقها على حين يكفى لمعرفة معاني الأبيات أن نصل إليها فرادى ونتذكر ما تعلمناه من ذلك دون أن يخضع الأمر للقواعد أي أن العروض صناعة والمعجم معرفة .(حسان، 2000: 15).

وللمحدثين تفريق بين العلم المضبوط وغير المضبوط يشبه التفريق ما بين الصناعات والمعارف. فللعلم المضبوط عندهم جملة من الخصائص يتميز بها عن العلم غير المضبوط يمكن أن نوضحها على النحو التالي:

1. الموضوعية. والمقصود بها أن يكون التفكير مرتبطا بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة دون اعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها وآرائها الشخصية ومعتقداتها. وتتحقق هذه الموضوعية بوسيلتين: إحداهما الاستقراء الناقص وثانيتهما ضبط النتائج.
2. الشمول. وهو ألا يقنع العلم بالنظر الجزئى إلى حقل الظواهر التى يتناولها ولا يدرس البعض منها دون البعض، أى أنه إذا صح أن نكتفى في الاستقراء ببعض المفردات دون بعض فلا يصح أن نقنع ببعض .ويتحقق هذا الشمول بوسيلتين إحداهما الحتمية وتسمى في تراثنا "القياس"، والثانية تجريد الثوابت.
3. التماسك. والمقصود به الترابط العضوى بين عناصر الموضوع المدروس بحيث يبدو الموضوع فى صورته النهائية نظاماً متكاملا وبناء متعاضدا. ولهذا التماسك طريقان: عدم التناقض بين فكرة وأخرى من أفكار الموضوع ثم التصنيف.
4. الاقتصاد. وله مظهران هما الاستغناء بتناول الأصناف عن تناول المفردات فى العبارة العلمية والمظهر الثاني والتقعيد.

ومن هذه الخصائص لعلم المضبوط يمكن تحديد الفرق بينه وبين العلم غير المضبوط وبذلك قد تحديد الفرق بين علم الصناعة والمعرفة. والحق أن العلم غير المضبوط يتسم أيضا بالموضوعية، ولكن موضوعية العلم غير المضبوط تنبني على الاستقراء التام دون الناقص وليس من عناصرها إمكان تحقيق النتيجة وضبطها. ويلاحظ ذلك في كلمتى "سندس" و "فلسفة" في منظور علم فقه اللغة، فإنهما من الكلمات المعربة وحين يعد الكلمتين يكون استقراؤه تاماً لأنه لا يعنى ما سواها، وحين يحكم بتعريبهما لا يمكن أن يحقق ما يقول لأن هذا التحقيق عود إلى تاريخ لا سبيل إليه وإن كانت حروفهما من الحروف العربية وصياغتهما من الصيغ العربية الفصيحة.

والعلم غير المضبوط أيضا لا يتسم بالحتمية؛ لأن الحتمية نتيجة من الاستقراء الناقص دون التام . وإذا كان للعلم غير المضبوط أن يصنف على نحو ما يصنف فقه اللغة أصناف الدخيل والغريب والمترادف والمشترك اللفظي والأضداد وهلم جرا، فإنه لا سبيل إلى اعتماده على التقعيد لأن التقعيد من خصائص العلم المضبوط.

لو وضعت كلمة "الصناعة" فى كل ما سبق في مكان "العلم المضبوط" وكلمة "المعرفة" بدلا من "العلم غير المضبوط" نجد أن ذلك ربما أعان على الوصول إلى فهم السلف لهاتين الكلمتين. فلقد تكلم الأولون عن صناعة النحو؛ لأن النحو يتسم بكل خصائص العلم المضبوط وتكلموا كذلك عن صناعة الشعر وقصدوا النظر إلى الشعر من خلال قواعد العروض وعمود الشعر، ولم ولم يطلق العرب اسم الصناعة على اللغة أو فقه اللغة أو المتن لأنه علم غير مضبوط. ويمكن القول باختصار : إن حقائق المعارف موضوعات للاستيعاب ؛ وإن حقائق الصناعات موضوعات للقياس. (حسان، 2000: 20).

البلاغة بين الصناعة والمعرفة .

مرت البلاغة بمرحلتين كانت في أولاهما أقرب إلى النقد العملى، وكانت الأخرى ألصق وأوغل فى الأسلوبيات. والمقصود بالأسلوبيات فرع من اللسانيات أى الدراسة اللغوية الحديثة) يقوم على تحليل الأسلوب والأسلوب اختيار استعمال إحدى الطرق الممكنة للتعبير حين يكون كل هذه الطرق صالحا لأداء المعنى. لقد كانت البلاغة في بداية نشأته تعتمد على الذوق والاحساس والعاطفة. وبدأت الدراسات البلاغية أول ما بدأت على أيدى اللغويين دون النحاة ولكنها كانت تدور في فلك التفريق بين الفصحاء وغير الفصحاء من العرب. وركن الرواد الأوائل إلى متابعة ما كان سائداً من الاعتراف بقبائل تتحقق لها

صفة الفصاحة، فقبلوا ما روى عنها، واطرحوا ما روى عن قبائل أخرى، لأن هذه القبائل خالطت سائر الأمم من حول العرب. فالجاحظ مثلا يرتضى فى فهم مصطلح البلاغة ما ارتضاه العتابي من أن كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ. (حسان، 2000: 279).

في حين بقيت البلاغة ذات المفهوم النقدي والملاحظات الفنية منصرفة إلى اللغة وإلى ما يوفر جانب الصحة، فكان رصد أوجه الحسن في الأداء الفني بكل ألوانه المعروفة هو بداية الدرس البلاغي والنقدي ، كما كانت عند أبي عبيدة (ت 210 هـ) والجاحظ (ت 255 هـ) ، ثم تحولت إلى استقراء للأمثلة من الإبداع الشعري عند ابن المعتز(ت 296 هـ)، ثم امتزجت بالنقد المتأثر بالمنطق كما عند قدامة (ت 337 هـ)، وبالذوق حينًا أخر كما عند العسكري (395 هـ) ، ثم دخلت مرحلة الملاحظة الدقيقة والتحليل الفني القائم على التمكن من علوم العربية عند عبدالقاهر (ت 471 هـ) الذي لم يحفل بوضع قواعد ولا تأصيل أصول. (الكتاني، 1983: 129).

ويمكن أن نسمي هذه المرحلة من عمر البلاغة العربية مرحلة الاتجاه الفني والتي تميزت بالبحث في النصوص بمناهج يغلب عليها التحليل والذوق المثقف ومحاولة استنباط الأصول بطريقة غير تقريرية غالبًا ما يكون قوامها تحري النصوص على وفق النظرة الأدبية الذوقية التي تولي الأعراف الفنية حقها من التقدير والاعتبار. (العالم، 1989: 211).

وأما ما بعد قدامة بن جعفر صاحب "نقد الشعر" واستوى واستحصد عند السكاكي صاحب " مفتاح العلوم" ومن المتأخرين بدر الدين ين مالك صاحب "المصباح في اختصار المفتاح" بدأ اتجاههم بالاهتمام بالتحديد والتعريف والتقسيم المنطقي. (صمو، 1981: 477).

إذا نظرنا إلى الخاصية الأولى من خواص العلم المضبوط وهي الموضوعية بمظهريها اللذين هما: الاستقراء الناقص، وإمكان تحقيق النتائج وهو ما يسمى الضبط، وجدنا هذه الدراسات تتسم بالموضوعية. فأما من حيث الاستقراء الناقص فقد استخرج العلماء حقائق هذه الدراسات من نصوص الأدب العربي ولم يكن لدى واحد منهم بعينه إلا ما تيسر له من نصوص هذا الأدب أثناء تصديه للبحث.. أما المظهر الثاني للموضوعية وهو الضبط أو إمكان التحقق من صدق النتائج، فإنه أوضح في بعض فروع البلاغة منه فى البعض الآخر. فالدراسات البيانية للمجاز بأنواعه يمكن للناظر فيها أن يتحقق من صدق ما وصل إليه من نتيجة ولكن القول فى فصاحة اللفظ وحسن جرسه وخلوه من التنافر والغرابة والكراهة فى السمع كله فضفاض لا يمكن ضبطه ولا تحديد درجاته.

والخاصية الثانية وهى الشمول تتمثل فى الحتمية وتجريد الثوابت أي الأصول العامة للمادة. أما الحتمية تبدو أن ذلك متحقق في شأن الدراسات البلاغية، بحيث إذا عرفنا الاستعارة أو الكناية أو التورية أو نحوها من خلال أحد الشواهد فإننا سنستطيع أن نطبق هذه المعرفة على غير هذا الشاهد من النصوص فنستخرج من النص الآخر ما فيه من استعارة أو كتابة أو تورية. أما تجريد الثوابت فيبدو أن البلاغيين اعتمدوا إلى حد كبير على المتوارث من قواعد التوجيه النحوية وبخاصة ما دار منها حول المعنى من الخبر والإنشاء والذكر والحذف والتقديم والتأخير والفصل والوصل والتعريف والتنكير وهلم جرا، وإن كانت للبلاغيين ثوابتهم الخاصة بهم كالحقيقية والمجاز والتشبيه والكناية والتورية والاستعارة والمعنى القريب والمعنى البعيد من صنيع ابن المعتز وقدامة وأبى هلال العسكرى من وضعهم المصطلحات لبعض ثوابت البديع .

والخاصية الثالثة هي التماسك الذي يأتى عن التصنيف وعدم التناقض ولاشك أن للدراسات البلاغية تصنيفاتها وتفريعاتها، ويتضح ذلك مثلا في أقسام التشبيه والمجاز والمحسنات المعنوية. وأما عدم التناقض فهو متوافر فى بناء الهيكل البنيوى للبلاغة الذى يشكل نظاما متكاملا قوامه المعاني التي يرتبط بعضها ببعض إيجابا وسلبا وتقوم بينها العلاقات الوفاقية والخلافية

وأما الخاصية الرابعة هى الاقتصاد الذى يتمثل في الاستغناء بالكلام في الأصناف عن الكلام فى المفردات كما يتمثل في التقعيد. أما التصنيف أو التقسيم من أوضح ملامح البلاغة السكاكية وأن ذلك واضح بصورة خاصة في تقسيمات التشبيه والمجاز والمحسنات المعنوية. وأما التقعيد فإن لكل فرع من فروع البلاغة قواعده التي يمكن بواسطتها اقتصاد القول فيه على طريقة الاقتصاد في العلم. ويتضح من كل ذلك أن البلاغة السكاكية صناعة كصناعة النحو، بل إن علم المعاني (وهو فرع من هذه البلاغة يعد من النحو، ولكنه ليس نحو الجملة المفردة، بل نحو النص المتصل. وقد أبان عبد القاهر الجرجاني عن ذلك قبل أن تصبح البلاغة صناعة . (حسان، 2000: 281-283).

وقد ذكر لقاء عادل حسين (2011: 244-246) أسباب تعقيد علم البلاغة وصناعيته. ولعل أهمها ما يلي:

1. نشأة البلاغة في بيئة المتكلمين والأصوليين. فالجاحظ وعبد القادر الحجرجاني متكلمان ومطلعان على فلسفة اليونان. وهذا ظاهر في كلامهما عن قضية المعنى واللفظ.
2. أن غلب علماء البلاغة هم من غير العرب بدءا بالجاحظ وصولا إلى السكاكي.

3. ارتباظ البلاغة بقضية إعجاز القرآن فحاول علماؤها بإثبات إعجازه في البلاغة. ومن أمثلة هذه الدراسات: مجاز القرآن لأبي عبيدة ودلائل الإعجاز للجرجاني.
4. تراجع الأدب. فقد بدأ الأدباء يستخدمون ألفاظا وأفكارا لسابقيهم يعيدون صياغتها بأسبوب آخر.

الخاتمة

كانت البلاغة عند العرب في الجاهلية قد بلغت مرتبة رفيعة ولها عناية كبيرة بإحسانهم الكلام والتفنن في معارضه البليغة. وبعد ظهور الإسلام دونوا علومهم اللغوية وتراثهم الأدبي ، وكانت البلاغة من أوائل العلوم التي اهتم العرب والمسلمون بها ، لحاجتهم اليها في معرفة روعة القرآن وسحره.

وكان ابن سلام الجمحي من أوائل الذين كتبوا في الأدب والنقد ثم تابعه الجاحظ والمبرد وابن المعتز في كتبهم البلاغية حتى وصلت إلى عبد القاهر فلسفها ووضع اسمها التي لم يجرؤ أحد على أن ينتقصها أو يضيف إليها شيئا له أهميته إلا ما حدث في ترتيب مسائلها وتهذيب أبوابها على يدي السكاكي.

فأصبحت الدراسات البلاغية بعد ذلك تفقد ذوقها اللغوي وتميزت بالموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد.

وترجع هذه الظواهر إلى تأثرها بالكلام وارتباطها بقضية إعجاز القرآن وأن غلب علمائها هم من غير العرب وتراجع الأدب.

المراجع

جلال شوقي (1985). نظم علوم البلاغة، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية العدد الثامن.

عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني (1996). البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق: دار القلم

علي زايد (1982). البلاغة العربية: تاريخها. مصادرها.ومناهجها، القاهرة: مكتبة الشباب.

هناء محمود شهاب وآزاد حسان حيدر (2007)، البلاغة لوصفها ميدانا معرفيا. مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل: المجلد 14 العدد 3

محمد الكتاني (1982-1983). محاولات التجديد للبلاغة العربية، بفاس: مجلة كلية الادب والعلوم الانسانية العدد السادس

إسماعيل أحمد العالم (1982-1983). وقفة مع البلاغة العربية، بفاس: المجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد السادس

شوقي ضيق (1995). البلاغة تطور وتاريخ. القاهرة: دار المعارف.

حمادي صمو (1981). التفكير اللاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. تونس: منشورات الجامعة التونيسية

لقاء عادل حسين (2011). البلاغة بين التيسير والتعقيد. جامعة بغداد: مجلة الجامعة العراقية العدد 27

تمام حسان (2000). الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو فقه اللغة البلاغة. القاهرة: عالم الكتب

أحمد مطلوب (1964). البلاغة عند السكاكي. بغداد: منشورات مكتبة النهضة

هدايات (2000). مذكرة لأصول النحو وفقه اللغة والبلاغة. جاكرتا

علي الجارم ومصطفى أمين (1971). البلاغة الواضحة، مصر: دار المعارف

Sidaryanto, Metode linguistik ke Arah Memahami Metode Linguistik, (Yogyakarta: Gajah Mada University Press), 1986